توحيد الألوهية والوعظ ودلائل النبوة

الصوتيات المفرغة للشيخ الخليفي (٣٩)

أبو جعفر عبد الله بن فهد الخليفي

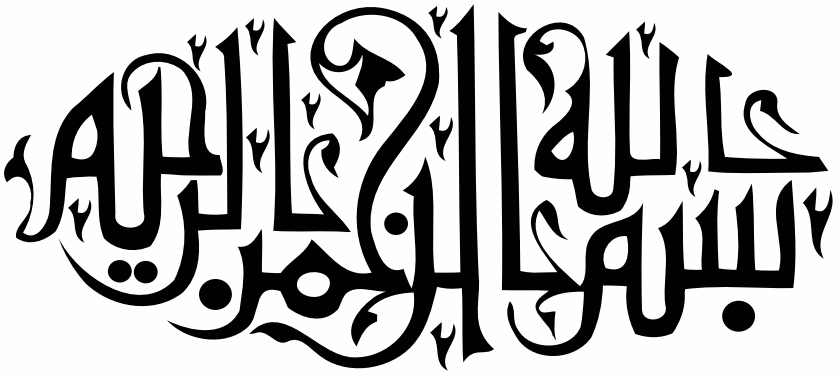
بسم الله الرحمن الرحيم

توحيد الألوهية عند طلبة العلم يقابله توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات. توحيد الألوهية مختص بإفراد الله عز وجل بالعبادة، بأفعال العبد التي يراد بها التعبد والتدين أو التي لا تكون إلا كذٰلك. مشهورٌ البحث في أنه لا يُذبح لغير اللّه، لا يُنذر إلا للّه سبحانه وتعالى لا يستغاث إلا به، لا يُتوكل إلا عليه تقدس اسمه. الكثير من الناس ينظرون لهـٰذا المبحث ـ توحيد الألوهية ـ على أنه مبحث حُكمي: هـٰذا توحيد وهـٰذا شرك. ولهـٰذا اتصلت صورة في أذهانهم عن العلماء الذين يتكلمون في الباب أنهم هم الذين يحكمون على الآخرين: يقولون هـٰذا مشرك، وهـٰذا كذا. ولا شك هـٰذا جزء من الموضوع. غير أن كثيرًا من الناس لا يعرفون أن لب الزهد والتصوف القديم كان قائم على هـٰذا موضوع توحيد الألوهية، فإن الصوفية الأوائل إذا وصلوا إلى أقصى درجات، التصوف يعبّرون عنها بما نُدرّسه في باب توحيد الألوهية، ويقصدون بها الدرجات العليا: أن لا تنظر إلا للّه، وأن لا تتوكل إلا على اللّه، وكيت وكيت، وينصون على عبارات مهمة جدًا، هـٰذه العبارات كان ابن تيمية وابن القيم يستخدمونها في نقد الصوفية المتأخرين، الذين صاروا يستغيثون بالأولياء، فكانوا مثلًا يوردون كلمة أبي يزيد البسطامي، والتي كان قد قالها أبو عبد الرحمـٰن السلمي أيضًا: "**استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق**". وتمعّن في هـٰذا النص الذي رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل عن سليمان الخوّاص ـ وهو من مشاهير الصوفية وقد ذكره الغزالي في الإحياء وابن عساكر في تاريخ دمشق ـ

روى بإسناده إلى أبي قدامة الرملي قال: "قرأ رجل هـٰذه الآية: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا**﴾ فأقبل عليّ سليمان الخواص فقال: يا أبا قدامة، ما ينبغي لعبد بعد هـٰذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير اللّه في أمره، ثم قال: انظر كيف قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ**﴾ فأعلمك أنه لا يموت، وأن جميع خلقه يموتون، ثم أمرك بعبادته". يعني الخوّاص يقول: برهان قطع تعلقك بالمخلوقات أنها تموت. لك أن تتعجب أن أناسًا يدّعون التصوف في زماننا ويدّعون أنهم أتباع للخواص وأضرابه هم إنما يستغيثون بالموتى فما كأنهم قرؤوا هـٰذه الآية ولا كأنهم سمعوا هـٰذا التفسير العجيب الذي يدل عليه ظاهر الآية. يقول: "ثم أخبرك بأنه خبير بصير، ثم قال واللّه يا أبا قدامة لو عامل عبدٌ اللّه بحسن التوكل وصدق النية له بطاعته لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم. فكيف يكون هـٰذا محتاجًا ومُوْئله وملجؤه إلى الغني الحميد؟!". بل من العجائب أنني رأيت رجلًا رافضيًا ألّف كتابًا على طريقة عرفانية، ـ فكثير من الرافضة متأثرون بالتصوف خصوصًا تصوف ابن عربي ـ والصوفية المتأخرون ينقلون كلام الصوفية المتقدمين في التوحيد وأحيانًا يحرفونه إلى وحدة الوجود، ولـٰكن أحيانًا يبقونه على سمته فيتأثر به من تأثر. هناك رجل اسمه سبزواري شيعي إمامي اثنا عشري من مراجعهم، له كتاب أسماه الأسرار الألوهية والفيوضات الربانية. الكتاب يتكلم فيه عن أمر الدعاء، وجاء إلى الآية: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ**﴾ صفحة ١١٤

وأراد أن يشرح: ﴿**فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ قال كلامًا لو قرأت بدايته ستقول أنه كلام إنسان سلفي ليس كلام شيعيًا إماميًا. قال: "إن إفراد الضمير في ﴿**عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ فيه إشارة إلى أن إجابة الداعي منحصرة به تعالى، ولا دخل لغيره فيها لأنه تصرف من عالم الملكوت الأعلى في عالم الملك الأسفل ولا يليق بذٰلك بغيره عز وجل". سبحان اللّه هـٰذا كلام من يستغيثون بغير اللّه ويقولون هناك ولاية تكوينية فانظر إلى العجب لمّا جاء وشرح القرآن مباشرة نقض بعض عقائده فانتبه إلى ما يخالف المشهور من تصرفات الشيعة الإمامية فاستدرك: "نعم الاستشفاع والتوسل بعباد اللّه الصالحين ـ هو يتحدث عن الاستغاثة ويسميها استشفاعًا وتوسلًا فهم لا يذكرون اللّه أصلًا. يقولون يا حسين، التوسل أن تدعو اللّه وتقول بجاه الحسين مثلًا، أما حين تقول يا حسين ولا تذكر اللّه البتة هـٰذا اسمه استغاثة ـ يقول الاستشفاع والتوسل بعباد اللّه الصالحين الذين جعلهم اللّه تعالى واسطة الفيض لديه شيء آخر لا ربط له بإجابة الدعوة كما لا يخفى". ما دام لا ربط له بإجابة فليدعو اللّه مباشرة؛ فأنه قريب، الآية ما قالت لنا ﴿**فَإِنِّى قَرِيبٌ**﴾ إلا ليقال لنا لستم بحاجة إلى وسائط، ثم عاد واستدرك وقال: "مع إن الحنان والرأفة وجذب الداعي إلى مقام القرب يقتضي توحيد الضمير" توحيد ضمير يعني تسأل اللّه وحده. بدليل ذكر القرب. فعاد واستدرك ونقض على نفسه: "لئلا يُعرض على قلب الداعي هيبة العظمة فتشغله عما يحتاجه من قليل أو كثير". أيضا هنا حين تذكر مع اللّه غيره وأنت تدعوه

قلبك يُعرض عنه وينتبه لغيره فانظر العجب!
ففي الواقع باب التوحيد باب من أعظم أبواب الرقاق لأنك حين تذكر التوكل وانقطاع الأسباب ومن أكثر الأبواب ـ خصوصًا باب التوكل ـ التي تجعلك واقعيًا وفي الوقت نفسه لا تصل إلى جمود الماديين، فأنت تبذل الأسباب ولٰكن تعتقد أن الأسباب لا تؤثر التأثير المرجو إلا بإذن اللّه، فكل سبب تفعله وتُقبِل عليه قد يمنع منه مانع، فكم من إنسان قد يطلب الرزق، ولٰكن لا تحصل له البركة، وتأتي موانع تمنعه، وهٰذه نظرة أهل الإيمان. فأهل الزندقة والإلحاد وغيرهم يصوّرون أن أهل الإيمان هٰؤلاء الذين يجلسون ثم يدعون اللّه عز وجل فقط ولا يبذلون! لا أبدًا. لٰكن الذي يبذل قلبه متعلق باللّه عز وجل. وهٰذا أمر مشاهد أن الشيء الواحد يطلبه هٰذا وذاك ويكون عزمهما متقاربًا، فأحدهم ينجح والآخر يفشل لعوامل خارجية، العوامل الخارجية بيد من؟ بل قدرته نفسها بيد من؟ صحته نفسها بيد من؟ كل شيء بيد اللّه، فكثير مما نقوله في دروس توحيد الألوهية في شرح كتاب التوحيد كان بابًا للرقاق وللزهديات فمن يظن أن دراسة مثل هٰذه الأمور مما يقسي القلب أو أو أو... هٰذا كلام غير صحيح. هي أمور رقاق في نفسها.
ولهٰذا ـ حفظكم اللّه ـ تجدون مثلًا الشيخ محمد عبد الوهاب في آخر كتاب التوحيد وضع بابًا في الأمن من مكر اللّه وغيرها من الأمور القلبية في الأمن من مكر اللّه، حتى في ثلاثة الأصول وضع كلامًا يتعلق بالرجاء والرغبة والرهبة والتوكل، هٰذه كلها متلازمة،

فأنا لا أصدك عن المخلوق إلا لأرغّبك بالخالق، فأقول: اجعل رغبتك له، اجعل رهبتك له، اجعل خوفك له...، هـٰذا هو منتهى التصوف في الزمن القديم أو لنقل منتهى الزهد. لـٰكن هـٰذا يكون بمعرفة اللّه تبارك وتعالى، حين تتحدث عن مقام المحبة للّه تبارك وتعالى المحبة لفظة تُطلق لـٰكن كيف تحب اللّه تبارك وتعالى؟ لها علامات وأمارات. فمثلًا حين تعرف أسمائه وصفاته تحب أن ترى آثارها في الناس. فتسعى في الخير وتسعى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فأنت تحب اللّه الحليم فتحلم، وتحب أن ترى قومًا حليمين. تحب اللّه العفو فتعفو. تحب اللّه الودود الذي يحب الصالحين، فتود أن تكون من الصالحين. تحب اللّه الغفور فتغفر وتصنع أسباب المغفرة، ومن أسباب المغفرة إقامة الحدود على العصاة، وتحب اللّه الرحيم ومن أسباب الرحمة مقاومة الباطل؛ لأن مقاومة رؤوس أهل الباطل رحمة بالضعفاء ممن يتْبَعونهم على باطلهم، فإذا رأَوك تقاومهم فأنت تعين الضعفة على أن يقاوموا هـٰؤلاء أيضًا. ثم المحب لهِج بذكر محبوبه. المحب يحب أن يرى محبوبه ويطرق بابه ويكلَمه ويخاطبه بمناسبة أو دون مناسبة، بل يفتعل المناسبة ليخاطبه. كذٰلك أنت حين تدعو اللّه ﷻ هـٰذا مقام المحبة الذي كان يتكلم عليها مشايخ الطريقة القدامى. فكيف أنت في الملمات التي صارت مناسبة؟ إنسان يحب إنسانًا ثم حصلت مناسبة لكي يلتقي بالإنسان الذي يحبه. هل سيذهب لشخص آخر؟ أبدًا فهو من دون مناسبة سيبحث عن مناسبة ليذهب إلى هـٰذا المحبوب. فكيف وقد وجد مناسبة؟

كذٰلك أنت ألمّت بك ملمة، حصل بك شيء تدعو البدوي ولا عبد القادر ولا تدعو اللّه عز وجل وحده؟ هـٰذا مقام المحبة. لهـٰذا ترى أولى الناس بمشايخ الطريقة الأوائل القوم الذين الآن يقال إن هـٰؤلاء أبعد الناس عن التصوف ـ بمعناه القديم طبعًا الذي هو معنى الزهد ودخلت عليه دواخل، والمسألة بحثها التاريخي معروف ـ. موضوع توحيد الألوهية كثير من الناس لا يذكره في دلائل النبوة. وأنت لو نظرت في الوحي فستجد أن دلائل النبوة لا تتعلق بشخص النبي ﷺ فقط بل ما جاء به لا يأتي به إلا نبي. فالآن حين تقارن التوحيد بالشرك وتعرضه على أي إنسان سليم الفطرة حتى لو كان مشركًا تجد نفسه فيها نوع ميل للتوحيد، وتجد الناس يوحّدون في الشدائد إلا بعض من تمت شقوته ممن تجده في الملمات يسأل الأقطاب الأربعة ويسأل كيت وكيت. كيف ضل أهل الكتاب وضل كثير من الناس عن التوحيد ثم أتى رجل أُمّي ﷺ وعلّم الناس التوحيد وذكر لهم براهينه؟ وأيضًا أمر المعاد ـ البعث ـ فهـٰذا مدد من اللّه، لا يوجد دين توحيدي ـ كما يقولون الأديان التوحيدية الثلاثة، هي ليست توحيدية، اليهودية فيها بلاء بتوحيد الأسماء والصفات وغيرها، والنصرانية الشرك فيها ظاهر جدًا. التوحيد التوحيد في الإسلام ـ وأيضًا من ضمن التوكل على الحي الذي لا يموت أن لا يُقدَّم أمر ميت فان على أمره. حتى الآية: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ**﴾ فيها نقض أيضًا لمفهوم العلمانية؛ اِعلم أنك ميت فأنت لست قائمًا في هـٰذه الحياة فقط؛ إذًا هناك آخرة، فإذا أردت أن تَزِن الأمور أوزنها باعتبار الآخرة.

فقد تقول قد تحصل بعض الأضرار من بعض الأحكام الشرعية! هٰذه أضرار دنيوية لٰكن فيها منافع أخروية، مثلًا جهاد الكفار، أو الاسترقاق حتى بعض الكفار ينفعهم في أُخراهم. «**عجبتُ لأقوام يقادون للجنة بالسلاسل**» فالإنسان إذا جاء في الآخرة وقد ضُرَّ في الدنيا ضررًا معينًا ولٰكن قاده إلى توحيد اللّه فإنه يَفرح به وينسى الضرر الذي مر عليه: «**عجبت لقوم يقادون للجنة بالسلاسل**»، «**يؤتى بأنعم أهل النار من أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة، فيقال له هل رأيت من خيرا قط؟ فيقول ما رأيت من خير قط**»، «**ليودن أهل البلاء في الدنيا لو قُرضوا بالمقاريض**» أنت في الآخرة باعتبار أهل الإيمان فيما بين بعضهم بعضًا. أهل الإيمان: المؤمن المبتلى الذي يجد الابتلاء كفارات له تجده يفرح بابتلائه يوم القيامة. «**فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمئة سنة**».

ما بالك بإنسان قيل له سنعاقبك على الذنب الفلاني، أو عوقب أو أُقيم عليه الحد ولٰكن جاء يوم القيامة طاهرًا، أو كان عنده هوى ينزعه إلى شرك أو كفر فقُوِّم هواه هٰذا حتى زال؛ فسيشكر الناس الذين فعلوا له هٰذا، لٰكن يقول لك واحد الحرية فوق كل شيء حتى لو تأخذك إلى نار جهنم، هو إذا صار بيوم القيامة يقول الحمد للّه الذي اللّه رزقني أناس وقفوا ضد حريتي التي كانت ستهلكني ثم بعد ذٰلك أصلح اللّه قلبي.